مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

في التَّسْلِيمِ القُرْآنِيِّ

التَّكَلُّفُ فِي تَعْلِيْلِ دَلَالَةِ الفَوَاصِلِ القُرْآنِيَّةِ

أحمد حسن مصطفى صعب [١]

١ الجامعة اللُّبنانيَّة / المعهد العالي للدكتوراه / قسم اللُّغة العربيَّة، لبنان؛

Saabahmad80@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤/١/٢٢	٢٠٢٤/٢/٩	٢٠٢٤/٣/٣١

المجلـد (١٧) العـدد (٢٩)
رَمَضَان ١٤٤٥هـ-آذَار ٢٠٢٤م

DOI:
10.55568/t.v17i29.1-21

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

يتناولُ هذا البحثُ قضيّةَ التكلّفِ في تعليلِ دلالةِ الفواصلِ القرآنيَّة، وذلك أنَّ كثيرًا من الذين كتبوا في اللُّغة القرآنيَّة والتفسير أرادوا أن يثبتوا أنَّ ثمَّة انسجامًا بين الموسيقا والدلالة في الفاصلة القرآنيَّة، فراحوا يعلّلون أسبابَ مجيء الفواصل القرآنيَّة بالشكل الذي جاءت به من وجهةِ نظرِهم، ليقولوا أنّ مجيئها بالنظمِ المعروف لم يكن للإيقاع الموسيقيّ فقط، بل إنَّ له دلالاتٍ منسجمةً مع سياق الآية، بل مع سياق السورةِ كاملةً. وإذا كان بعضُهم وُفِّقَ في هذا التعليلِ وجاء بما يُقنعُ القارئ من دون أيِّ تكلّفٍ، فإنَّ عددًا كبيرًا منهم لم يكن موفّقًا في تعليلاتِه، وغاص في وحل التأويل المهلهل والتعليل المتكلّف لِيُثبتَ رأيًا بعيدًا. وما هذا البحثُ إلّا تسليطٌ للضوءِ على أصحاب التعليل المتكلّف في تبيان دلالة الفواصل القرآنيَّة، ومناقشةُ آرائهم برويَّةٍ.

الكلمات المفتاحيّة: تعليل، تكلّف، دلالة، فاصلة قرآنيَّة، إيقاع موسيقيّ.

Dexterity in Explicating Semantics of Quranic "Pause Marks"

Ahmed Hassan Mustafa Sa`ab [1]

1 Lebanese University / Doctoral School of Literature / Department of Arabic Language,

Lebanon; Saabahmad80@gmail.com
PhD. In Arabic language/ lecturer

Received:	Accepted:	Published:
22/1/2024	9/2/2024	31/3/2024

DOI: 10.55568/t.v17i29.1-21

Volume (**17**) Ramadan 1445 AH
Issue (**29**) March 2024

CC BY NC

Abstract:

This research deals with the issue of the efforts to explain the significance of the Quranic pauses, and that is because many of those who wrote in the Quranic language and interpretation wanted to prove that there is harmony between music and significance in the Quranic pauses, so they justified the reasons for the Quranic commas in the form in which they came according to their point of view, to say that their presence takes a well-known arrangement, it is not for the musical rhythm only, but rather it has connotations consistent with the context of the verse, but rather with the context of the entire surah. If some of them were successful in this reasoning and gained what convinces the reader without any effort, then a large number of them were not successful in their reasoning. This research sheds light on the authors of the elaborate reasoning in clarifying the significance of the Quranic commas, and discussing their opinions objectively .

Keywords: justification - affectation - significance - Quranic comma - musical rhythm

المقدّمة:

القرآن الكريمُ معجزةُ خاتم الأنبياءِ محمّد ﷺ التي تحدّى بها فصحاءَ العربِ وبلغاءهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ. وهو – فضلًا عن إخباره بالغيبيَّات – معجزةٌ لغويّةٌ لا يُبلَغُ شأوُها؛ فمفرداتُه فصيحةٌ ومعبّرةٌ عن المرادِ بأجمل الكلمات وأسلسِها، وتراكيبُه لا يُنظمُ مثلُها، تتعاضد فيها الدلالةُ مع الموسيقا، فيصلُ المعنى إلى قلبِ القارئِ قبلَ عقلِه.

ومن المعروفِ أنّ القرآنَ الكريمَ يراعي جانبَ الإيقاعِ الموسيقيِّ أيّما مراعاةٍ، لا سيّما في فواصلِه[1]*، وهو في الوقتِ عينِه لا يضعُ كلمةً في غيرِ موضعِها، فليس فيه كلماتٌ مجّانيَّةٌ كالتي نراها في الشعر حيثُ توضعُ استكمالًا للوزنِ. "والفاصلة القرآنيَّة عنصرٌ أساس من عناصر اللُّغة الإيقاعيَّة، والقرآن الكريم يمتاز بحسن الإيقاع، فتأتي الفاصلة في ختام الآيات حاملةً تمامَ المعنى وتمامَ التوافق الصوتيّ في آنٍ واحد".[2]

وقد قرأنا كثيرًا في هذا الموضوعِ، فرأينا الباحثينَ منقسمين فريقين؛ واحدًا يرى أنَّ استعمالَ القرآنِ كلماتٍ محدّدةً في الفاصلة كان لمراعاة الإيقاعِ فقط**، وآخرَ يرى أنَّ هذه الكلمات أدّتْ معانيَ دقيقةً منسجمةً مع كلماتِ الآيةِ، بل مع معاني السورةِ كاملةً، هذا فضلًا عن مراعاةِ الجانبِ الموسيقيِّ فيها ليتناسبَ مع ما سبقَه جَرْسًا وإيقاعًا.

وما رأيناهُ عند الفريق الأوّل أنَّه أرجعَ مجيءَ الفاصلةِ القرآنيَّة بالشكل الذي جاءت به في كثيرٍ من المواضعِ إلى الإيقاعِ الموسيقيِّ أو نظمِ الكلام[3] ***، غيرَ ملتفتٍ إلى الدلالة التي تؤدّيها الفاصلةُ بشكلِها الذي جاءت به، ولا إلى الانسجامِ الكلّي بينها وبين آيات السورةِ التي وردتْ فيها. وهذا رأيٌ – بنظرنا – ضعيفٌ، وفيه حدٌّ من سعةِ القرآنِ الكريمِ ومعجزتِه البلاغيَّة التي تحدّت أربابَ البلاغةِ في كلِّ عصرٍ ومِصرٍ.

---

١ ياسوف، أحمد. جماليات المفردة القرآنية (دمشق: دار المكتبي، ١٩٩٩)، ٣٠٩.

٢ عبد المتجلي، محمد. "مكانة الفواصل من الإعجاز في القرآن الكريم،" مجلّة الدارة، ١٤١٠، ٧.

٣ ابن الأثير، محمد. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢٠)، ٣٦.

* الفاصلة هي كلمة آخر الآية، كقافية الشّعر، وقرينة السّجع، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب، لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام.

** يُنظر على سبيل المثال: "المثل السائر" لابن الأثير تحت عنوان "النوع التاسع في التقديم والتأخير"، وكتاب "التعبير القرآني" لفاضل السامرائي تحت عنوان "فواصل الآي"، وكتاب "مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن" للدكتور تمّام حسّان تحت عنوان "الفاصلة القرآنيّة".

*** هذا رأي ابن الأثير في كتابه "المثل السائر"، حيث أرجعَ مجيء عددٍ من الفواصل القرآنية بالشكل الذي جاءت به إلى نظم الكلام ومراعاة حسن النظم السّجعيّ في فواصل الآيات، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ٥)، وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ (الحاقة ٣٠ – ٣١).

ورأينا عندَ الفريق الثاني أنَّهم حاولوا أن يُثبتوا هذا الانسجامَ بين المعنى والموسيقا في الفاصلة القرآنيَّة بكلِّ ما أوتوا من قوّةٍ، وأن يستجلوا الوجهَ الذي جاءت فيه الفواصلُ بالشكل الذي جاءت به، ويكتشفوا أسرارَه، فَجَرَّهم ذلك إلى كثيرٍ من التكلّف والتمحّل الذي لا ضرورةَ له. ولو أنَّهم أرجعوا كلَّ ذلك إلى حكمةٍ يجهلونها لكان أحجى وأصوبَ.

والذي نراه، أنَّ الحقَّ كامنٌ بين الفريقين، فلا هذا أصابَ في جعل الموسيقا ونظمِ الكلامِ العلّةَ الوحيدةَ في مجيءِ الفواصلِ القرآنيَّةِ بالشكل الذي جاءت به، ولا ذاك وُفِّقَ في تعليلِ مجيء كلِّ الفواصل القرآنيَّة على الشكل الذي جاءت به.

ولا يعني كلامُنا هذا أنَّ كلَّ التعليلاتِ التي أُدلِي بها كانت ركيكةً مُهلهَلةً، فمن التعليلات ما ينمُّ عن علمٍ في اللُّغةِ وفنّ القولِ لا مزيدَ عليه، فـ "هناك فواصل كثيرة فتح اللهُ على أهل العلم مغاليقَها فاستنبطوا دلالاتِها، وتبيّنوا الانسجامَ اللَّفظيّ والمعنويّ فيها...[٤]. وتفصيل ذلك يحتاجُ من المساحةِ إلى ما لا يجودُ به هذا البحثُ المقتضبُ *.

وسنعرض في هذا البحثِ نماذجَ من التكلّفِ في تعليلِ بعضِ الفواصل القرآنيَّة، مسلّطين الضوءَ على مواضعِ الضعفِ فيه. وهو بحثٌ جديدٌ في مجالِه، لم نطّلعْ على مثيلٍ له، على الرغم من كثرةِ ما كُتبَ من الأبحاثِ في الفاصلة القرآنيَّة ومتعلّقاتِها من موسيقا ودلالة وسياقٍ، ومعظمَها أبحاثٌ مكرّرةٌ يأخذُ اللاحقُ فيها عن السابق.

العرض:

لا شكَّ في أنَّ إدراكَ السببِ الذي جاءت لأجلِه معظمُ الفواصلِ القرآنيَّة بالشكل الذي جاءت به، أمرٌ ليس باليسير، فإنْ كان قسمٌ منها واضحَ الدلالةِ والمغزى، فإنَّ قسمًا آخرَ كبيرًا لا يُعرفُ سببُه، أو يحتاجُ إلى كثيرٍ من إعمالِ الفكرِ حتَّى يُعرف.

---

٤ عيسى، غربي . "العدول اللفظي في الفاصلة القرآنية بين مراعاة الفاصلة واعتبار دلالة السياق،" مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، ٢٠١٩، ٢٢٦.

* من أراد الاستزادة في هذا الموضوع نُحيلُه إلى عدد من الكتب القيّمة، وفيها من التعليلات ما هو مقبولٌ وحسنٌ وجيّدٌ، أمثال: "درة التنزيل وغرة التأويل" للخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠ هـ)، "البرهان في توجيه متشابه القرآن" لأبي القاسم الكرماني (ت: ٥٠٥ هـ)، "ملاك التأويل" لأبي جعفر الغرناطي (ت: ٧٠٨ هـ)، "الإتقان في علوم القرآن" و "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للسيوطي (ت: ٩١١ هـ)، "التعبير الفنّي في القرآن" للدكتور بكري شيخ أمين، "من بلاغة القرآن" للدكتور أحمد أحمد بدوي، "التعبير القرآني" للدكتور فاضل صالح السامرائي

وللاستشهاد نعرضُ هذا المثلَ، وهو قولُه تعالى: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(المائدة ١١٨)، فالمتبادر إلى الذهن أنَّ هذه الآية يجب أن تنتهيَ بقول "غفور رحيم"[٥] لا "عزيز حكيم" ليتناسب مع قوله تعالى في صدر الآية ﴿**وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ**﴾، "وذُكِرَ في حكمتِه أنَّه لا يَغفرُ لمن استحقَّ العذابَ إلَّا من ليس فوقه أحدٌ يردُّ عليه حكمَه، فهو العزيزُ، أي الغالبُ. والحكيم هو الذي يضع الشيءَ في محلّه، وقد يخفى وجهُ الحكمة على بعضِ الضعفاء في بعضِ الأفعال فيتوهّم أنه خارجٌ عنها وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراسٌ حسنٌ، أي: وإن تغفر لهم مع استحقاقِهم العذابَ فلا معترضَ عليك لأحد في ذلك، والحكمةُ فيما فعلته"[٦].

إنَّ هذا التعليلَ لا يتسنّى - بحقٍّ - إلَّا لأصحاب الذوق اللُّغويِّ السليم.

ولأنَّ القرآنَ الكريمَ يتسنّم من البلاغةِ ذروتَها، فلن يستافَ أريجَه ولا يكتنهَ أسرارَه إلَّا من علا كعبُه في اللُّغةِ العربيَّةِ وامتلكَ ناصيتَها، أو مَن فُطرَ عليها فطرًا. وقد روى لنا التاريخُ عددًا من المواقفِ التي تُثبتُ ذلك، منها:

حُكيَ عن الأصمعيّ أنَّه قال: كنت أقرأُ ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (المائدة ٣٨) وإلى جنبي أعرابيٌّ فقلتُ: (والله غفورٌ رحيمٌ) سهوًا، فقال الأعرابي: كلامُ مَنْ هذا؟ قلت: كلامُ الله، قال: أعدْ، فأعدْتُ: والله غفورٌ رحيمٌ، فقال: ليس هذا كلامَ الله، فتنبّهتُ فقلت: ﴿**والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ فقال: أصبتَ، هذا كلامُ الله. فقلتُ: أتقرأُ القرآنَ؟ قال: لا، قلتُ: فمن أين علمتَ أنِّي أخطأتُ؟ فقال: يا هذا، عزَّ، فحَكَمَ، فقَطَعَ، ولو غفر، ورحم لَما قطع[٧].

ورُوِيَ أنَّ قارئًا قرأ هذه الآيةَ: ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (البقرة ٢٠٩)، فأخطأ في فاصلتِها، وقال: (غفورٌ رحيمٌ)، فسمعه أعرابيٌّ فأنكره، ولم يقرأ القرآن، وقال: إنْ كان هذا كلامَ الله فلا يقول كذا الحكيمُ، لا يذكرُ الغفرانَ عند الزللِ، لأنَّه إغراءٌ عليه[٨].

---

٥ السيوطي، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤)، ج٣/ ٣٥٢.
٦ السيوطي، ج٣/ ٣٥٢.
٧ الطيبي، الحسين عبد الله. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ٢٠١٣)، ج٣/ ٣٢٥.
٨ الزمخشري، محمود عمرو. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ)، ٢٥٣.

إنَّ إدراكَ رجلٍ لا يقرأ القرآنَ خطأً مخفيًّا في فاصلتِه لدليلٌ على أنَّ القرآنَ الكريمَ له أهلُه، ولا يتعاطاه ذو الباعِ القصيرِ. وقد حاولَ عددٌ كبيرٌ من علماءِ اللُّغةِ والمفسّرين تعليلَ بعضِ الفواصلِ القرآنيَّة، فوُفِّقوا في قسمٍ منها، ولم يوفَّقوا في آخرَ. وقد عبّر عن هذا المعنى الدكتور فاضل السامرّائيّ بقولِه: "إنَّ قسمًا من الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآنيّ لم يوفَّقوا في اكتناهِ أسرار التأليف بحيث تدرك أنَّ تعليلاتِهم متكلَّفةٌ وتأويلاتِهم بعيدةٌ، وربَّما أدركت أيضًا أنَّه لو كان الكلامُ على غير هذه الصورة لأوّلوه وعلّلوه تعليلًا آخرَ. ولكن هناك قسمٌ آخر تمكَّن من أن يضعَ يدَه على أنفس الجواهر في التأليف، وأن يستكنهَ أدقَّ أسرارِ التعبيرِ من غير تكلُّفٍ ولا غموضٍ"[٩].

وسنعرضُ في هذا البحثِ نماذجَ قليلةً من التعليلِ المُتكلَّفِ في الفاصلة القرآنيَّة بالمقدارِ الذي يتّسعُ له البحثُ: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾ ذكر الله سبحانه تعالى قصّةَ النبيّ موسى ﷺ مع فرعون، وسجود السحرة له في ثلاثِ سورٍ قرآنيَّةٍ، وسنذكر هذه الآيات لنتكلّمَ بعدها على الآيةِ موضعِ الشاهد:

في سورة الأعراف: ﴿**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣)**﴾

في سورة الشعراء: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾

في سورة طه: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١)**﴾

إذا تأمّلنا الفروقَ بين هذه المواضعِ الثلاثةِ نجدُ أنَّ قولَ السحرةِ متشابهٌ في السورتين الأُوْلَيين، ومختلفٌ في السورة الأخيرةِ؛ ففي السورة الأولى والثانية (الأعراف والشعراء) جاء الخطاب على هذا النسق: **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**. أمَّا في السورة الثالثة (سورة طه) فقد جاء الخطاب باختلاف ترتيب كلمتي "موسى وهارون"، فجاءت الآية على النسق الآتي: **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**.

٩ السامرائي، فاضل صالح. التعبير القرآني (عمان: دار عمار، ٢٠٠٦)، ٢١٦.

وهنا قامت قيامةُ المفسّرين واللُّغويّين، وبُريَتِ الأقلامُ وسُوِّدتِ الصفحاتُ في محاولةِ تعليلِ هذا الاختلافِ، وكان ملخّصُ رأيِهم يُختصرُ بأمرين؛ الأوَّل هو أنَّ النسقَ الذي جاءت به الآيةُ في سورةِ "طه" لم يكن إلَّا مراعاةً للإيقاع الموسيقيّ الناتجِ من فواصلِ الآيات في هذه السورة. والأمر الثاني هو أنَّ هذه الآية جاءت على هذا النسق لغاياتٍ دلاليَّة منسجمةٍ تمامَ الانسجامِ مع باقي الآياتِ في سورة "طه".

ولأنَّ الرأيَ الأوَّلَ خارجٌ عن نطاقِ بحثِنا، فسنستعرضُ الرأيَ الثاني متوقّفين عند التعليلات التي قدّموها، مبيّنين ما لها وما عليها.

رأي الفخر الرازي (ت: ٦٠٦ هـ):

قال الفخرُ الرازي في التفسير الكبير المسمّى "مفاتيح الغيب" معلّلًا سببَ تقديم "هارون" على "موسى" في آية سورة "طه":

"فِرْعَوْنَ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ (النَّازِعَاتِ ٢٤) وَالْإِلَهِيَّةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ (الْقَصَصِ ٣٨) فَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ لَكَانَ فِرْعَوْنُ يَقُولُ: إِنَّهُمْ آمَنُوا بِي لَا بِغَيْرِي فَلِقَطْعِ هَذِهِ التُّهْمَةِ اخْتَارُوا هَذِهِ الْعِبَارَةَ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ قَدَّمُوا ذِكْرَ هَارُونَ عَلَى مُوسَى لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَدَّعِي رُبُوبِيَّتَهُ لِمُوسَى بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ رَبَّاهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيدًا**﴾ (الشُّعَرَاءِ ١٨) فَالْقَوْمُ لَمَّا احْتَرَزُوا عَنْ إِيهَامَاتِ فِرْعَوْنَ لَا جَرَمَ قَدَّمُوا ذِكْرَ هَارُونَ عَلَى مُوسَى قَطْعًا لِهَذَا الْخَيَالِ"[١٠].

نقاش: إنَّ قولَ الرازي: "لو أنَّهم [السحرةَ] قالوا: آمنّا بربِّ العالمين لكان فرعون يقول: إنَّهم آمنوا بي لا بغيري"، تعليلٌ فيه تكلُّفٌ ظاهرٌ، وذلك لأنَّ أحداثَ القصَّةِ لا توحي بذلك أبدًا، فالسحرة لم يقولوا ذلك إلَّا بعد أن صدمَهم النبيّ موسى ﷺ بما فعله بسحرِهم حيث التقفت عصاه كلَّ أباطيلِهم، وفي هذا غلبةٌ واضحةٌ للنبيّ موسى ﷺ، وانهزامٌ جليٌّ للسحرةِ أجمعين. فهل يُعقلُ أن يظنَّ فرعون وهو المهزومُ انهزامًا ساحقًا أمام عصا موسى ﷺ أنَّ انكبابَ السحرةِ ساجدينَ إثرَ هزيمتِهم النكراءِ كان له لا لله تعالى ربِّ موسى؟!

١٠ الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب(بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ)، ج٢٢/ ٧٦.

ثُمَّ إنَّ الآيات في سورةِ "الشعراء" وهي تروي الحادثةَ ذاتَها، تقول: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧)**﴾، فلماذا لم يظنَّ فرعونُ أنَّه المعنيُّ بـ"ربِّ العالمين" في هذا الموضع؟

وكذلك في قول الرازي إنَّ تقديمَهم ذكرَ هارونَ على موسى ليحترزوا من أن يتوهّمَ فرعونَ أنَّه المقصودُ بربِّ موسى لأنَّه كان ربَّاه وليدًا، تعليلٌ متكلَّفٌ أيضًا، إذ لو كان ذلك كذلك لقُدِّمَ ذكرُ هارون على موسى في المواضعِ الثلاثةِ التي وردتْ فيها القصَّة في القرآن الكريم، في حين أنَّه لم يكن ذلك إلَّا في سورة "طه".

فضلًا عن ذلك، نسألُ الرازي: كيف يتوهّمُ فرعونُ بأنَّه المقصودُ بقولِهم "ربّ موسى" كونه ربَّاه وليدًا، مع إضافةِ كلمة "هارون" إلى "موسى"؟ فهل هو ربَّى هارون أيضًا؟ ربَّما يصحُّ التوهّمُ لو كان قولُهم مقتصرًا على ربِّ موسى، أمَّا وقد ذكروا معه هارون، فالتوهُّمُ مدفوعٌ لا محالةَ.

رأي البيضاويّ (ت: ٦٨٥ هـ):

يرى البيضاويّ في تفسيره الموسوم بـ "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" بأنَّ تقديم "هارون" على "موسى" في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾ كان "لِكِبَرِ سِنِّهِ أَوْ لَرَوِيِّ الآيَةِ، أَوْ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ رَبَّى مُوسى في صِغَرِهِ فَلَوِ اقْتَصَرَ عَلى مُوسى أَوْ قَدَّمَ ذِكْرَهُ لَرُبَّما تَوَهَّمَ أَنَّ الْمُرادَ فِرْعَوْنُ وذِكْرُ هارُونَ عَلى الِاسْتِتْباعِ"[١١] .

نقاش: في هذا النصِّ، علّلَ البيضاويّ تقديمَ اسمِ "هارون" على "موسى" في الآيةِ السالفة بتعليلاتٍ ثلاثة، وهي: للرويّ، ولكِبَرِ سنِّ هارون، ولأنَّ فرعون ربَّى موسى في صغره فقدّموا "هارون" لكي لا يتوهَّم فرعون أنَّه المقصود.

ونحن بدورنا نناقش التعليل الثاني منهما، لأنَّ الأوَّل خارجُ نطاق بحثِنا، والثالث ناقشناه في الفقرة السابقة. إنَّ تعليلَ البيضاويّ بتقديم اسم "هارون" على "موسى" لِكِبَرِ سنِّه لأمرٌ مستغرَبٌ، فلو كان التقديمُ احترامًا للسنِّ، وهارون أكبر من موسى بثلاث سنين على ما رُوي[١٢]، فلماذا لم يكن هذا الاحترامُ في السورتين السابقتين "الأعراف" و "الشعراء"؟ فهل طرأ أمرٌ ليجعلَ اللهَ تعالى يقدّم ذكر هارون الأكبرِ سنًّا بعد أن أخّره مرّتين؟

١١ البيضاوي، عبد الله عمر .أنوار التنزيل وأسرار التأويل (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ)، ج٤/ ٣٣.
١٢ الطبرسيّ، فضل بن حسن مجمع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار المرتضى، ٢٠٠٦)، ج٧/ ١٥.

ثُمَّ ما قيمةُ العمرِ أمام قيمةِ الذات؟ أليس "موسى" نبيَّ اللهِ وكليمَه المقرّب وأحدَ أنبياء أولي العزم الخمسةِ؟ فأين مقامُ وصيِّه من مقامِه هذا؟

لا يسعُنا إلَّا أن نقول إنَّه تعليلٌ مُتكلَّفٌ لا يُعينُ على إثباتِه المنطقُ السليمُ.

رأي أبي حيَّان الأندلسيّ (ت: ٧٤٥ هـ):

قال أبو حيّان في تفسيره "البحر المحيط" في تعليل تقديم "هارون" على "موسى" بعد تأخيرِه مرّتين في سورتين سابقتين: "يُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ القَوْلانِ مِن قائِلَيْنِ؛ نَطَقَتْ طائِفَةٌ بِقَوْلِهِمْ: رَبِّ مُوسى وهارُونَ، وطائِفَةٌ بِقَوْلِهِمْ: رَبِّ هارُونَ ومُوسى، ولَمّا اشْتَرَكُوا في المَعْنى صَحَّ نِسْبَةُ كُلٍّ مِنَ القَوْلَيْنِ إلى الجَمِيعِ"[١٣].

نقاش: إنَّ احتمالَ أبي حيّان مستبعَدٌ، وذلك لأنَّ السحرةَ على كثرتِهم إمّا أن يكون لهم رئيسٌ أو قائدٌ يتكلّم باسمِهم جميعًا، أو لا يكون لهم قائدٌ؛ فإذا كان لهم قائدٌ فلا بُدَّ أنَّه قال واحدةً من العبارتين الآتيتين: (ربّ موسى وهارون) أو (ربّ هارون وموسى)، ولا يُحتملُ أبدًا أن يكون قد قال العبارتين كليهما؛ لأنَّ الحادثةَ واحدةٌ لا اثنتان.

وإذا لم يكن لهم قائدٌ واحدٌ يتكلّم باسمِهم، فهذا يعني أنَّ المتكلّمين كانوا كثيرين، ومن غير المحتملِ أن يصدرَ عن العددِ الكبيرِ قولانِ فقط، بل أقوالٌ شتَّى، في حين أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يذكرْ غيرَ قولينِ اثنينِ في هذه الحادثة.

رأي أ.د. فاضل السامرّائيّ:

يرى الأستاذ الدكتور فاضل السامرّائيّ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى:

"قدّم في (طه) ذكر هارون وفي (الشعراء) ذكر موسى. وقد تظنّ أنَّ ذلك ما يقتضيه أواخر الآي. ونقول صحيح أنَّ أواخرَ الآي في سورة (طه) تقتضي أن يكون موسى في آخر الآية، وفي (الشعراء) تقتضي أن تكون كلمة (هارون) هي الفاصلة، ولكن هناك ملحظ آخر يقتضي تقديم ما قُدّم وتأخير ما أُخّر، ولو لم تكن أواخر الآي كذلك. وانظر إلى الفرق بين القصَّتين في السورتين"[١٤].

١٣ حيان، محمد يوسف ابن .البحر المحيط في التفسير (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ)، ج٧/ ٣٥٨.
١٤ السامرائي، التعبير القرآني، ٢١١.

إذًا، يرى السامرّائيّ أنّ تقديم ذكر هارون على موسى في سورة "طه" لم يكن للإيقاع الموسيقيّ فحسب، بل كان لأسبابٍ أخرى تقتضي هذا التقديم حتَّى لو لم تكن فواصل الآيات في سورة طه منتهية بالألف. فما هي هذه الأمور الموجبة للتقديم بحسب السامرّائيّ؟ أوَهي حقًّا كذلك، أم إنَّ في تعليله تكلّفًا؟ هذا ما سنفنّده في السطور الآتية.

الأمر الأوَّل: قال السامرّائيّ:

"إنَّ ذكر هارون تكرّر في سورة طه كثيرًا وقد جعله الله شريكًا لموسى في تبليغ رسالته في حين لم يرد في سوره الشعراء إلَّا قليلًا". ثُمَّ ذكر المواضع التي ذُكر فيها "هارون" في سورة "طه"، وقد أعرضنا عن ذكرها بالتفصيل لضيق المقام، فإذا هي ثلاثُ مرّاتٍ ذكرًا صريحًا، وبضعُ مرّاتٍ بالضمير المثنّى العائد إليه وإلى أخيه النبيّ موسى ﷺ.

وفي مقابل ذلك، لم يرِد ذكرُ "هارون" في سورة "الشعراء" إلَّا قليلًا. فيُنهي السامرّائيّ الكلام في هذا الأمرِ بقولِه: "فأنت ترى أنَّ القصّة في (طه) مبنيَّة على التثنية، وأنَّها في (الشعراء) مبنيَّة على الإفراد".

نقاش: حتَّى لو اتّفقنا مع الدكتور السامرّائيّ في أنَّ ذكر هارون في سورة "طه" التي قُدّم فيه ذكرُه على موسى كان أكثر من ذكره في سورة "الشعراء" وفي سورة "الأعراف" قبلها، فهذا لا يوجب أن يُقدّم ذكرُه على ذكر موسى، وذلك لِما يأتي:

أ-مهما تعدّد ذكر هارون في سورة "طه" يبقَ أقلَّ عددًا من المرّات التي ذكر فيها موسى ﷺ، فإذا كان المعيارُ الكثرةَ، فتقديم ذكر موسى ﷺ على هارون في هذه السورة – وكما في السورتين الأخريينِ – أوجب.

ب-وإذا كان المعيارُ الفضلَ، فتقديمُ ذكر موسى ﷺ على هارون أوجبُ أيضًا، لأنَّ موسى ﷺ هو النبيُّ، وأخوه هارون وصيُّه، والنبيُّ أفضل من الوصيِّ.

الأمر الثاني: قال السامرّائيّ:

ذكر في آيات "طه" خوف موسى ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى**﴾ ولم يذكر حالة الخوف هذه في "الشعراء".

فأنت ترى أنَّه ذكرت جوانب الكمال والقوَّة في موسى في (الشعراء) ولم تذكر حالة الضعف البشريّ الذي اعتراه، فاقتضى كلَّ ذلك المغايرة في التعبير بين القصَّتين. وأظنَّك في غنى عن أن أقول لك: لو قيل لك: قدّم وأخّر بين الاسمين حسب ما يقتضيه السياق لقدّمت هارون على موسى في (طه) وموسى على هارون في (الشعراء) [١٥].

نقاش: هل ذِكرُ الحالةِ التي اعترت النبيَّ موسى ﷺ في سورة "طه" موجبةٌ لتأخير ذكره وتقديم ذكر أخيه هارون عليه؟ فما العلاقة بين الخوفِ وتأخير الذكر.

ثُمَّ إنَّ الله سبحانه وتعالى قدّم ذكرَ موسى على ذكر أخيه هارون في السورتين الأُخْرَيَينِ في أثناء روايتِه القصَّةَ ذاتَها، فإذا كان خوفُ موسى ﷺ هو الذي أخّر ذكره في سورة "طه"، فلماذا لم يؤخَّرْ ذكرُه في "الأعراف" و "الشعراء" وخوفُه كان حاصلًا فعلًا قبل قصَّتِه مع السحرة؟

أضف إلى ما تقدَّم، أنَّ قول السامرّائيّ: "لو قيل لك: قدّم وأخّر بين الاسمين حسب ما يقتضيه السياق لقدّمت هارون على موسى في (طه) وموسى على هارون في (الشعراء)"، إنَّ قولَه هذا يتهافتُ أمام أوّلِ سؤالٍ، وهو: ما الذي يدفعُ بالقائلِ إلى أن يطلبَ منِّي التقديم والتأخير بين موسى وهارون في آية سورة "طه"؟ لماذا لا يُذكران على ترتيبِهما في سورتي "الأعراف" و "الشعراء"؟ إنْ كان الموجبُ الفاصلةَ، فقد صرّح في بداية كلامِه بأنَّ السياق يقتضي التقديم والتأخير حتَّى لو لم تكن أواخر الآي كذلك.

ثُمَّ إنَّه من قالَ للسامرّائيّ أنَّني سأختارُ تقديم هارون على موسى؟ وكيف جزمَ بذلك؟ كذلك لا يخفى أنَّ تقديمَ المفضولِ على الفاضلِ أمرٌ غير مقبول؟

ولا يتوهّمنَّ أحدٌ أنَّ قولي هذا يوحي بأنِّي أرى أنَّ تقديمَ هارونَ على موسى في سورة "طه" كان خلافًا للصواب أو البلاغةِ. حاشا لله من ذلك، فإنَّني أؤمنُ أنَّ كلامَ الله سبحانه وتعالى بلغ الغايةَ العليا من البلاغةِ والكمال، وأنَّ تقديمَه اسمًا في موضعٍ وتأخيرَه في موضعٍ آخر كان لغايةٍ، وهذه الغاية إمَّا أن تكونَ موسيقيَّة كما صرّح بهذا عددٌ كبيرٌ من علماءِ اللُّغةِ والتفسير، وإمَّا أن تكونَ غايةً مستورةً لم تُكشفْ بعدُ. وما اعتراضنا إلّا على التكلّفِ في تعليلِ الغاياتِ والجزمِ بها تعليلًا وجزمًا هشًّا لا يصمدان أمامَ النقد.

١٥ محمود، جمال. الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية (عمّان: دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠١٠)، ٢٦٦.

الأمر الثالث: قال السامرّائيّ:

وعلاوة على ذلك، هناك طريفة أخرى وهي أنَّ سورة (طه) تبدأ بالحرفين الطاء والهاء. وسورة (الشعراء) تبدأ ب (طسم) فكلتا السورتين تبدآن بالطاء غير أن الحرف الأخير من (طه) هو الهاء وهو أوَّل حروف هارون وليس فيها حرف من حروف موسى. والحرف الأخير من (طسم) هو الميم وهو أوَّل حرف من حروف موسى وليس فيها حرف من حروف هارون. أفلا يزيد حسنًا على حسن تقديم هارون على موسى في (طه) وتقديم موسى على هارون في (الشعراء)؟

ويضيف السامرّائيّ إلى ما سبقَ قولَه:

وقد ترى ذلك إغراقًا في التعليل ورُبَّما كان ذاك، إلَّا أنَّ العجيب أنَّ كلَّ سورة تبدأ بالطاء ترد فيها قصَّة موسى في أوائلها مفصَّلة قبل سائر القصص مثل: (طه، وطس، وطسم في القصص، وطسم في الشعراء) وليس في المواطن الأخرى ممَّا يبدأ بالحروف المقطَّعة مثل ذلك، فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحروف (ط) قصَّة موسى مفصَّلة في أوائل السورة. والملحوظة الأخرى أنَّ ما يبدأ بـ (طسم) تكون قصَّة موسى فيها أطول ممَّا يبدأ بـ (طس) فكأنَّ زيادة الميم إشعار بزيادة القصَّة. فانظر يا رعاك الله أيَّ سرٍّ من أسرار التعبير هذا؟[١٦]

نقاش: في الواقع إنَّ ذهابَ السامرّائيّ – على علوٍّ كعبِه في الدراسات اللُّغويّةِ – في هذا الطريقِ يُبعدُه من رؤيته المتوخَّاة من كلامِه. فلمَ انصرفَ عن البحث في الميدان اللُّغويّ والمعنويّ والسياقيّ في القرآن الكريمِ على براعتِه فيه، إلى كلامٍ آخر؟! لقد احتملَ أنَّ كلامَه هذا إغراقٌ في التعليل، فما الذي دفعَه عن المحجّةِ الأوسعِ والجادّةِ المَهْيعِ ؟!

إنَّ ما قالَه السامرّائيّ في أنَّ كلَّ سورة تبدأ بحرف الطاء ترد فيها قصّةُ النبيّ موسى ﷺ مفصّلةً قد لا يعدو كونَه محضَ صدفةٍ على قلّة السُّوَر التي تبدأ بالطاء في القرآن الكريمِ. ثُمَّ إنَّه ما العلاقة بين حرف (الطاء) واسم (موسى)؟ والأمر ذاتُه يُقال في شأنِ حرفِ الميم، فما علاقتُه باسم موسى أو بقصّتِه حتَّى ترد قصّته أكثر تفصيلًا في السور التي تبدأ بـ (طسم) من السور التي تبدأ بـ (طس)، علمًا أنَّه لا يوجدُ في القرآنِ الكريمِ غيرُ سورتين تبدآن بـ (طسم)، فهل يُبنى رأيٌ على حالتينِ اثنتينِ؟ لَعمري إنّ احتمالَ الصدفةِ فيه كبيرٌ.

١٦ محمود، ٢٦٦.

لقد كان حريًّا بالسامرّائيّ أنّ يكتفي بالتحليل العقليّ، وهو الذي رفع النقاب عن أمورٍ لا يملكُ قارئها إلَّا أن يرفعَ القبّعةَ لها احترامًا وإعجابًا.

رأي الدكتور كمال الدين المرسيّ:

يرى الدكتور كمال الدين عبد الغنيّ المرسيّ أنَّ تقديم (هارون) على (موسى) في سورة طه اقتضاه السياق، وذلك لأنَّ الآية بعدَها ﴿**قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾ (طه ٧١) والضمير في "له" يعودُ إلى أقرب مذكورٍ، ولهذا لم يقل: بربِّ موسى وهارون، لأنَّ الضميرَ في هذه الحالة سوف يعود إلى هارون والمراد موسى، فلهذا كان لا بدَّ لإقامة السياق من الترتيب الذي عليه الآية ﴿**بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾.[١٧]

نقاش: إنَّ إرجاعَ الضمير إلى أقرب مذكورٍ قبله ليس قاعدةً كُلِّيَّةً لا تقبلُ الخرمَ، فقد خرمَها القرآن الكريم في مواضعَ متعدّدةٍ، وذلك كما في قولِه تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾ (إبْرَاهِيمَ ٤)؛ فضمير الهاء في كلمةِ "تحصوها" يعودُ إلى كلمة "نعمة" وليس إلى "الله" مع أنَّ كلمة "الله" هي أوَّل مذكورٍ قبلَها. وكما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ (الكهف ٢٢)؛ فَإِنَّ الضَمِيرَ في (فِيهِمْ) عائدٌ إلى أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَالضمير في (مِنْهُمْ) عائدٌ إلى اليَهُودِ، قاله ثَعْلَبٌ وَالْمُبَرِّدُ[١٨]. ومثل ذلك قولُه تعالى: ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ (الفتح ٩)، فالضمائر في كلمتي "تعزِّروه" و "توقِّروه" عائدةٌ إلى "الرسول" وهو أقرب مذكورٍ قبلهما، بينما يعود الضمير في "تسبِّحوه" إلى الله سبحانه وتعالى الذي لا يجوز التسبيح إلَّا له، وهو ليس أقرب مذكور قبله، وإن كان للسيوطيّ رأيٌ مغايرٌ في هذه الآية.[١٩]

فضلًا على ما أسلفنا، نسألُ الدكتور المرسيّ بفائق الاحترامِ والتقدير: هل تنطبقُ هذه القاعدة (إرجاع الضمير إلى أقرب مذكورٍ) على حالةٍ دون أخرى في القصَّة الواحدة من قصص القرآنِ الكريم؟ ألم تلتفتْ إلى سياق آيات سورة "الشعراء" حيث يقول الله تعالى: ﴿**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾؟

١٧ المرسي، كمال الدين عبد الغني فواصل الآيات القرآنية، الإسكندرية (الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٩)، ٩٦.
١٨ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢/ ٣٣٨.
١٩ السيوطي، جلال الدين. معترك الأقران في إعجاز القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ج٣/ ٤٦٦.

فعلى القاعدة التي بنيتَ عليها سيعود الضمير في كلمة "له" إلى أقرب مذكورٍ قبله وهو "هارون"، مع أنَّ المقصودَ في الآية "موسى" لا "هارون"، فماذا تقولُ في ذلك؟!

إنَّه تعليلٌ متكلَّفٌ لا يصمدُ أمامَ النقد، فلو اكتفى الدكتور المرسيّ بقولِه إنَّ تقديم "هارون" على "موسى" كان لرعاية الفاصلة لكان أحجى وأسلم.

رأي الشيخ مُحَمَّد متولّي الشعراويّ (ت: ١٤١٨ هـ):

يرى الشيخُ الشعراويُّ في تفسيره "الخواطر" أنَّ السببَ في حكايةِ قولِ السحرة بتقديم موسى على هارون مرّتين، وتقديم هارون على موسى مرّة، هو أنَّ السحرةَ كانوا كثيرين، ولا شَكَّ أنَّهم لم يتَّفقوا على قول واحد؛ ففريقٌ قدَّم ذكر "موسى" على "هارون"، وفريقٌ أخّرَه. فهي إذًا "أقوال متعدِّدة ولقطات مختلفة لمجتمع جماهيري لا تنضبط حركاته، ولا تتفق تعبيراته، وقد حكاها القرآنُ كما كانت فليس لأحدٍ بعد ذلك أن يقول: إنْ كان القول الأوَّل صحيحًا، فالقول الآخر خطأ أو العكس".

ثُمَّ يضيفُ مشبّهًا: "وما أشبه هذا الموقف الآن بمباراة رياضيَّة يشهدها الآلاف ويُعلِّقون عليها، تُرى أتتفق تعبيراتهم في وصف هذه المباراة؟ نقول: إذن، تعدَّدت اللَّقطات وتعدَّدت الأقوال للقصَّة الواحدة لينقل لنا القرآن كلَّ ما حدث" [٢٠].

نقاش: إنَّ قولَ الشعراويِّ شبيهٌ بقولِ أبي حيَّان السالف ذكرُه، ويُرَدُّ على قولِه بأنَّ السحرةَ لم يتّفقوا على قولٍ واحدٍ، بأنَّه كلامٌ لا دليلَ عليه، فمن أخبره بأنَّ كلَّ واحدٍ منهم تكلَّمَ بما شعرَ واعتقدَ؟ أليس لهم رئيسٌ أو قائدٌ يتكلَّم باسمِهم ويوافقونَه الرأي؟ فلو كان لكلِّ واحدٍ منهم كلامٌ لنتجَ عنهم كلامٌ كثيرٌ يتعدّى القولين. وكون القصَّةِ وردت ثلاث مرّاتٍ في القرآنِ الكريمِ، فلماذا لم يذكرِ اللهُ سبحانه وتعالى ثلاثةَ أقوالٍ من أقوالهم بدلًا من قولين اثنين؟ ثُمَّ من أين له هذا الجزمُ بأنَّ الله سبحانَه وتعالى حكى في مرّتين قولَ فريقٍ، وفي مرّةٍ ثالثةٍ قول فريقٍ ثانٍ؟

٢٠ الشعراويّ، محمد متولّي الخواطر (مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧)، ٩٣٢٢.

رأي الأستاذ محمّد الحسناويّ (ت: ٢٠٠٧م)

نظر الأستاذُ الحسناويُّ في هذه الآية فخطر له خاطران:

الأوَّل: أنَّ ذكر موسى ﷺ متأخِّرًا في الفاصلة لا يغفل أفضليته على هارون إن كان ثمَّة مفاضلة، لأنَّ مقاطع الكلام - كما هو معلوم - في القافية والفاصلة والسجع من نقاط الارتكاز في الكلام من جهة، وآخر ما يقع في السمع والنفس من جهة ثانية.

الثاني: أنّ هناك وجهًا بيانيًّا يصوّر الحالة النفسية التي كان عليها السحرة لمّا ظهرت معجزة "موسى"، فألقوا سجّدًا يتلعثمون بالشهادة، كحال العبد الذي فرح بلقاء راحلته بعد ضياعِها[...] ثُمَّ قال من شدّةِ الفرح: "اللَّهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك"*، أخطأ من شدّة الفرح.

نقاش: بالعودة إلى الخاطر الأوَّل، نقول: إذا كان تأخير اسم "موسى" على "هارون" وَضَعَه موضعَ الارتكازِ في الكلام، وجعله آخرَ ما يقع في السمعِ والنفسِ، لا يعني هذا أنَّ التأخيرَ أفضلَ من التقديمِ، فالقرآنُ الكريمُ ليس شعرًا، ومن الخطأِ جعل الفاصلة بمنزلة القافية. ثُمَّ إنَّه إذا سلّمنا مع الحسناويّ بأنَّ تأخير "موسى" أعطاه هذه القيمةَ المضافة، فماذا يقول بتأخير "هارون" عليه في بضعة مواضعَ غيرِها من القرآن؟

أمَّا الخاطر الثاني فهو إلى القراءة أقرب، وذلك للأمور الآتية:

أ-ماالدليلُ على أنَّ السحرةَ تلعثموا وأخطأوا في كلامِهم لهيبةِ الموقفِ، فقدّموا "هارون" على "موسى"؟

ب-إذا كانوا فعلًا قد تلعثموا وأخطأوا، فلماذا ذُكِرَتِ الآياتُ الأخرى بتقديمِ "موسى" على "هارون"؟

ت-إذا كان السحرةُ قد تلعثموا حقًّا، فلماذا لم يعودوا ويصحّحوا ما أخطأوا فيه، لأنَّ المتلعثم عادةً يستدركُ خطأه ويصحّحه؟ إلّا إذا كانت دهشتُهم الشديدةُ من هولِ ما رأوه منعتهم من أن يُدركوا أنَّهم أخطأوا فعلًا.

ث-إذا كانوا قد تلعثموا وأخطأوا، لماذا روى اللهُ سبحانه وتعالى كلامَهم المتلعثَم به بحرفيَّته،

❋ روى الحسناوي في هذا الموضع رواية وردت في صحيح مسلم تحت رقم (٢٧٤٧)، في التوبة، وقد حذفناها للاختصار وهي: للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بأَرْضٍ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فأيسَ منها، فأتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، قدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هو كَذلكَ إِذَا هو بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ،

ولم يروِه بالمعنى، وبخاصّةٍ أنَّ رويَ الحادثةِ بمعناها متواترٌ في القرآن الكريم؟

ج-القول بتلعثم السحرة غريبٌ لأنَّه يناقضُ الآيات القرآنيَّة التي ذكرت أنَّ السحرةَ ثبتوا على إيمانِهم وأعلنوه بكلِّ جرأة على الرغم من تهديد فرعون لهم بالصَّلب. فكيف تجتمع هذه الجرأةُ النادرة مع التلعثم والتخبّط في القول [٢١] ؟

إنَّ الكلامَ في هذه الآيةِ يطولُ جدًّا لو أردنا استقصاءه لكثرةِ الآراء التي أُدليَ بها حولها، ونحن نكتفي منها بهذا المقدار، وننتقل إلى آياتٍ أخرى لنبيّنَ بعض التعليلات الواهيةِ ونعلّق عليها.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾:

قال اللهُ سبحانه وتعالى في الآية ٧٩ من سورة "طه": **﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾**. وتقدير الكلام: وما هداهم، فحذف المفعولَ لوضوح الدلالة عليه. وللدكتور فاضل السامرّائيّ رأيٌ في حذف المفعول به في هذه الآية وهو أنَّ الحذف هنا له غرض لطيف علاوة على الإيجاز وذلك أنَّه أخرجه مخرج العموم، أي أنَّ فرعون لا يتّصف بصفة الهداية البتَّة وذلك أنَّه لو قال (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيَّدًا بقومه إذ يحتمل أنَّه هدى غيرهم لكنَّه قال (وما هدى) أي ما هدى أحدًا [٢٢].

وإنَّنا لنسألُ: كيفُ يُتوقّع من فرعونَ أن يهديَ قومًا غير قومِه، قومًا لم يتّصل بهم ولم يروه. إذا كان عاجزًا عن أن يهديَ قومَه بحسب إخبار الله تعالى **﴿وَمَا هَدَى﴾**، فهو عن هداية غير قومِه أعجز.

وعلى فرض أنَّ السامرّائيَّ محقٌّ في هذا التعليل، فهل ينطبق تعليلُه ذاتُه على هذه الآية من سورة "طه" أيضًا وهو يروي قصّةَ آدمَ ﷺ وزوجه مع الشيطان الرجيم: **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾** (طه ١٢٢) ؟ فإذا نقلنا كلامَ السامرّائيّ على الآية السابقة إلى هذه الآية، لصار المعنى كالآتي: ثُمَّ اصطفى اللهُ سبحانه وتعالى آدمَ ﷺ بعدَ أن وسوس له الشيطانُ، وتاب على آدمَ، وهدى الخلقَ جميعًا! فهل هذا كلامُ العربِ؟ إنَّ هذا الالتفاتَ من الحديثِ عن آدمَ ﷺ إلى الحديث عن الخلق أجمعين يُنافي البلاغةَ ويُشوّشُ الذهنَ ويُلبِسُ المعنى. فهل من المعقول أن يكونَ الفعلانِ الأوّلانِ (اجتبى، تاب)

٢١ عيسى، "العدول اللفظي في الفاصلة القرآنية بين مراعاة الفاصلة واعتبار دلالة السياق."

٢٢ السامرائي، فاضل صالح معاني النحو (عُمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠)، ج٢/ ٩٣.

مختصّين بآدمَ، والفعلُ الثالثُ (هدى) لغيرِه، من دون أيِّ إشارةٍ توحي بهذا الانتقال؟

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾:

وننتقل إلى آيةٍ جديدةٍ، وهي الآية الثالثة من سورة "الضحى"، وهي: **﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾**. فالسياقُ في هذه الآيةِ يقتضي ذكرَ المفعول للفعل "قلى" على غرار ما فعلَ في الفعل السابق "ودّعَكَ". لكنّ البلاغةَ والإيقاعَ منعا من ذلك:

أمّا البلاغةُ فلأنَّ في حذف المفعول اختصارٌ لفظيّ لظهورِ المحذوفِ[٢٣]؛ إذ إنَّه من الواضحِ جدًّا أنَّ المقصودَ في الآية: (ما ودّعكَ ربّكُ وما قلاكَ)، وقد استغنى عن ذكر المفعول الثاني بالمفعول الأوَّل، إنَّه – على حدِّ قول الطبريّ – "اكتفاءٌ بفهم السامع لمعناه إِذْ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿مَا وَدَّعَكَ﴾** (الضحى ٣) فَعُرِفَ بِذَلِكَ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ"[٢٤]. وهو شبيهٌ بقولِه تعالى: **﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾** (الأحزاب ٣٥)، وتقدير الكلام قبل الحذف: (والذاكرين الله كثيرًا والذاكراته). وحذف المعلومِ جائزٌ في اللُّغةِ بلا أيِّ إشكالٍ، بل هو من البلاغةِ الموجبةِ للاختصار. وقد نظم ابنُ مالكٍ (ت: ٦٧٢ هـ) قاعدةَ الحذفِ في ألفيَّتِه ببيتٍ موفّقٍ، وهو [من الرجز]:

وحذف ما يُعلمُ جائزٌ كما تقول: (زيدٌ) بعد: (مَنْ عندكما؟)[٢٥]

وأمّا الإيقاعُ فلأنَّ فواصل الآي في الآيات الثماني الأولى من سورة "الضحى" مبنيّة على الألف المقصورة، وهذه هي: **﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨)﴾**، لذلك جاءت الأفعال في نهاية الآيات محذوفة المفعول[٢٦].

---

٢٣ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٤/ ٧٦٦.

٢٤ الطبريّ، محمّد بن جرير جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ٢٠٠١)، ج٢٤/ ٤٨٤.

٢٥ ابن مالك، محمّد بن عبد الله متن ألفية ابن مالك (الكويت: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦)، ٩.

٢٦ النيسابوريّ، الحسن بن محمد غرائب القرآن ورغائب الفرقان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦)، ج٦/ ٥١٦.

رأي أ.د. بنت الشاطئ *:

ترى أ.د. بنت الشاطئ أنَّ حذف المفعول من فعل "قَلى" في آية: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ فضلًا على دلالةِ ما قبلَه عليه "تقتضيه حساسيَّة معنويَّة مرهفة بالغة الدقَّة في اللُّطف والإيناس هي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس: ما قلاك. لِما في القِلى من الطرد والإبعاد وشدَّة البغض" [٢٧].

رأي أ.د. فاضل السامرّائي:

وهو رأيٌ شبيهٌ برأي بنت الشاطئ. نذكرُه ونعلِّق عليهما معًا. قال السامرّائيّ:

ويذكر النحاة أنَّ المفعول قد يُحذف لتناسب الفواصل كقوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ (الضحى ٣)، أي وما قلاك، غير أنَّني أرى لهذا الحذف غرضًا بديعًا وسرًّا لطيفًا علاوة على ما ذكروه، وهو أنَّ الحذف ههنا للإكرام والتعظيم وذلك أنَّه تعالى لم يُرِدْ أن يواجهَه بالقلى فيقول (وما قلاك) وإنَّما اكتفي بالمفعول السابق إكرامًا لرسول الله من أن يناله الفعل. ونحو هذا يجري في كلامنا كأن يقول أحدٌ لآخر بلغني عنك أنَّك شتمت وقلت وقلت، فيقول: لا والله ما شتمت ولا قلت، فحذف المفعول من الفعلين تعظيمًا له من أن يناله الفعل.[٢٨]

نقول: إنَّ الكلام في هذه الآيةِ منفيٌّ، فاللهُ سبحانه وتعالى نفى الفعل (ودّع) بـ "ما"، وكذلك الفعل "قلى"، فكيف يكون في هذا تقليلٌ من إكرام النبيّ ﷺ وتعظيمِه؟ نعم، لو كان الفعلانِ موجبينِ لصحَّ تعليلُ السامرّائيّ. فإذا قلتَ مثلًا لصديقٍ لك: "ما أبغضتُك منذ أحببتُك" فهل في الفعل الأوَّل ما يوحي بتقليلِ احترامٍ أو حطٍّ من مقامِ الصديق؟

ثُمَّ إذا كان اللهُ سبحانه وتعالى – على حدِّ قولِ السامرّائيّ – قد كرِه أن يقولَ لنبيِّه الحبيب ﷺ: (وما قلاك) إكرامًا وتعظيمًا له من أن ينالَه الفعلُ، أو تحاشى ذلك – على حدّ قول أ.د. بنت الشاطئ – في مقام الإيناس، فكيف قال له: ﴿**مَا وَدَّعَكَ**﴾؟ أليس هذا الفعلُ مشابهًا لفعلِ "قلى" في المعنى؟

---

٢٧ عبد الرحمن، عائشة التفسير البياني للقرآن الكريم (القاهرة: دار المعارف) د.ت. ٣٥.

٢٨ السامرائي، فاضل صالح. معاني النحو. عُمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٠ ج٢/ ٩٣ .

* بنت الشاطئ: باحثة مصريّة معاصرة، وأستاذة الدراسات البلاغية في جامعة القرويين في فاس.

فضلًا على ما سلف، نقولُ إنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى قال في سورةِ "الحاقّة" معرِّضًا بنبيّه ﷺ: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)**﴾، أليسَ هذا الكلامُ أشدَّ وأقسى من الكلام اللَّطيفِ في سورة "الضحى"؟ بلى، وإنَّ البونَ بينهما شاسعٌ. فكيف لقائلٍ: ﴿**لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)**﴾ ألّا يقولَ: وما قلاك؟!

وقد يعترضُ معترضٌ بأنَّ آيات سورة "الحاقّة" لم يُقصدْ بها شخصُ النبيِّ الكريمِ محمّدٍ ﷺ، فنجيب: راجع أمّات تفاسيرِ المسلمينَ على اختلافِ مذاهبهم، أمثال: تفسير ابن جرير الطبريّ (ت: ٣١٠ هـ)، تفسير السمرقنديّ (ت: ٣٧٣ هـ)، تفسير مكّيّ (ت: ٤٣٧ هـ)، تفسير السمعانيّ (ت: ٤٨٩ هـ)، تفسير البغويّ (ت: ٥١٦ هـ)، تفسير ابن الجوزيّ (ت: ٥٩٧ هـ)، تفسير ابن كثير (ت: ٧٧٤ هـ)، تفسير الثعالبيّ (ت: ٨٧٥ هـ)، تفسير الشوكانيّ (ت: ١٢٥٠ هـ)، تفسير الميزان للطّباطبائيّ (ت: ١٤٠٢ هـ)، تفسير الأمثل للشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ (ولد: ١٣٤٢ هـ)... فكلّ هذه التفاسير وغيرُها كثيرٌ ينصُّ على أنَّ المقصود بالآيات هو النبيّ محمّدٌ ﷺ.

هذا غيضٌ من فيضِ التعليلاتِ، ولو أردنا استعراضَ ما اطّلعنا عليه منها لَخرجنا عن حدود البحثِ، لكن بما ذكرناها منها بُلْغة واضحة.

نرجو أن نكونَ قد وُفّقنا في تبيان ما أردناه، وألّا نكونَ قد جانبنا الصّوابَ في ما ادّعيناه.. وما التوفيقُ إلّا من عندِ الله، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخاتمة:

خلاصة ما توصّلنا إليه في هذا البحث هو أنَّ المشتغلينَ في مباحثِ الفاصلةِ القرآنيَّةِ – على كثرتهم – لم يُوفّقْ معظمُهم في تعليل مجيء الفاصلةِ القرآنيَّة على الشكل الذي جاءت به، فقد حاولوا أن يثبتوا أنَّ ثَمَّ انسجامًا بين المعنى والموسيقا، وهو أمرٌ غيرُ مستبعدٍ، بل راجحٌ، لكنَّهم تكلَّفوا في تعليلِ ذلك بتعليلاتٍ ضعيفةٍ. وحتَّى نثبتَ ادعاءنا هذا، عرضنا نماذج من هذا التكلُّف في ثلاثِ آياتٍ قرآنيَّة:

الآية الأولى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾. وعرضنا بعدها آراء كلٍّ من الفخر الرازيّ والبيضاويّ وأبي حيَّان الأندلسيّ والدكتور فاضل السامرّائيّ والدكتور كمال الدين المرسيّ والشيخ الشعروايّ والأستاذ مُحَمَّد الحسناويّ، وبيّنَّا أقوالَهم في سبب تقديم كلمة "هارون" على "موسى" في هذه الآية، ثُمَّ ناقشنا هذه الآراء واحدًا واحدًا وبيّنَّا ما فيها من تكلُّفٍ واضحٍ وتعليلٍ، لم يثبت أمام النقد.

الآية الثانية: **﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾**. وعرضنا بعدها رأي الدكتور فاضل السامرائيّ في سبب حذف المفعول لكلمة "هدى"، ثُمَّ بيّنَّا ما فيه من ضعفٍ وتكلُّفٍ بعد أنْ قارنَّا هذه الآيةَ بالآية ١٢٢ من سورة "طه".

الآية الثالثة: **﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾**. وعرضنا بعدها رأيَ الدكتورة بنت الشاطئ ورأيَ الدكتور فاضل السامرّائيّ في سبب حذف المفعول من فعل "قلى"، مبيّنين بطلانَ تعليلاتهما الضعيفة قياسًا على آياتٍ أخرى من القرآن الكريم.

ما نطمئنُّ إليه في خاتمةِ البحث أنَّ الانسجامَ بين المعنى والموسيقا في الفواصل القرآنيَّة أمرٌ راجحٌ، لا سيَّما بعد أن أثبتنا شيئًا منه في بداية العرض، ولكنَّ إدراكَ دلالته وعمقه لا يتسنَّى إلَّا لعددٍ قليلٍ من الناس، وما أكثر مَن حاول إدراكَه بمصيبٍ في محاولاتِه.

المصادر:

القرآن الكريم

ابن الأثير، محمد. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢٠.

ابن حيان، محمد يوسف. البحر المحيط في التفسير. بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠.

ابن مالك، محمّد بن عبد الله. متن ألفية ابن مالك. الكويت: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦.

البيضاوي، عبد الله عمر. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨.

الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠.

الزمخشري، محمود عمرو. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧.

السامرائي، فاضل صالح. التعبير القرآني. عمان: دار عمار، ٢٠٠٦.

السامرائي، فاضل صالح. معاني النحو. عُمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.

السيوطي، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

السيوطي، جلال الدين. معترك الأقران في إعجاز القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

الشعراويّ، محمد متولّي. الخواطر. مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧.

الطبرسيّ، فضل بن حسن. مجمع البيان في تفسير القرآن. بيروت: دار المرتضى، ٢٠٠٦.

الطبريّ، محمّد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري). القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ٢٠٠١.

الطيبي، الحسين عبد الله. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب. دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ٢٠١٣.

المرسي، كمال الدين عبد الغني. فواصل الآيات القرآنية، الإسكندرية. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٩.

النيسابوريّ، الحسن بن محمد. غرائب القرآن ورغائب الفرقان. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦.

عبد الرحمن، عائشة. التفسير البياني للقرآن الكريم. القاهرة: دار المعارف، د.ت.

عبد المتجلي، محمد. "مكانة الفواصل من الاعجاز في القرآن الكريم." مجلّة الدارة، ١٤١٠.

عيسى، غربي. "العدول اللفظي في الفاصلة القرآنية بين مراعاة الفاصلة واعتبار دلالة السياق." مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، ٢٠١٩.

محمود، جمال. الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية. عمّان: دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠١٠.

ياسوف، أحمد. جماليات المفردة القرآنية. دمشق: دار المكتبي، ١٩٩٩.